وسعه يريد ما أمر به من الإنفاق على المطلقات والمرضعات كما قال: ﴿ومتعوهنّ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره﴾[1] وقرئ*: ليفنق بالنصب، أي: شرعنا لك لينفق. وقرأ ابن أبي عبلة قدر ﴿سيجعل الله﴾ موعد لفقراء تلك الوقت بفتح أبواب الرزق عليهم أو لفقراء الأزواج إن أنفقوا ما قدروا عليه ولم يقصروا.

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾.

﴿عتت عن أمر ربها﴾ أعرضت عنه على وجه العتو والعناد ﴿حسابًا شديدًا﴾ بالاستقصاء والمناقشة ﴿عذابًا نكرًا﴾ وقرئ*: نكر منكرًا عظيمًا، والمراد حساب الآخرة وعذابها وما يذوقون فيها من الوبال ويلقون من الخسر. وجيء به على لفظ الماضي كقوله تعالى: ﴿ونادى أصحاب الجنة﴾[2] ﴿ونادى أصحاب النار﴾[3].

أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾.

ونحو ذلك لأنّ المنتظر من وعد الله ووعيده ملقى في الحقيقة وما هو كائن فكأن قد وقوله: ﴿أعد الله لهم عذابًا شديدًا﴾ تكرير للوعيد وبيان لكونه مترقبًا كأنه قال: أعد الله لهم هذا العذاب فليكن لكم ذلك ﴿يا أولي الألباب﴾ من المؤمنين لطفًا في تقوى الله وحذر عقابه، ويجوز أن يراد حصاء السيئات واستقصاؤها عليهم في الدنيا، وإثباتها في صحائف الحفظة وما أصيبوا به من العذاب في العاجل. وأن يكون عتت وما عطف عليه صفة للقرية وأعدّ الله لهم جوابًا لكاين.

رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾.

﴿رسولًا﴾ هو جبريل صلوات الله عليه أبدل من ذكرًا لأنه وصف بتلاوة آيات الله فكان إنزاله في معنى إنزال الذكر[4] فصح إبداله منه، أو أريد بالذكر الشرف. من قوله: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ فأبدل منه كأنه في نفسه شرف إما لأنه شرف للمنزل عليه، وإما لأنه نو مجد وشرف عند الله كقوله تعالى: ﴿عند ذي العرش مكين﴾ أو جعل لكثرة نكره لله وعبادته كأنه نكر أو أريد ذا نكر أي: ملكًا منكورًا في السموات وفي الأمم كلها، أو دل قوله: أنزل الله إليكم نكرًا على أرسل فكأنه قيل: أرسل رسولاً أو أعمل نكرًا في رسولاً إعمال المصدر في المفاعيل. أي: أنزل الله أن نكر رسولاً أو نكره رسولاً، وقرئ*: رسول على هو رسول. أنزل ﴿ليخرج الذين امنوا﴾ بعد إنزاله أي: ليحصل لهم ما هم عليه الساعة من الإيمان والعمل الصالح لأنهم كانوا وقت إنزاله غير مؤمنين، وإنما آمنوا بعد الإنزال والتبليغ، أو ليخرج الذين عرف منهم أنهم يؤمنون. قرئ*: يدخله بالياء والنون ﴿قد أحسن الله له رزقًا﴾ فيه معنى التعجيب والتعظيم لما رزق المؤمن من الثواب.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾.

﴿الله الذي خلق﴾ مبتدأ وخبر. وقرئ*: مثلهنّ بالنصب عطفًا على سبع سموات، وبالرفع على الابتداء وخبره من الأرض. قيل: ما في القرآن آية تدل على أنّ الأرضين سبع إلا هذه. وقيل: بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام، وغلظ كل سماء كذلك، والأرضون مثل السموات ﴿يتنزل الأمر بينهن﴾ أي: يجري أمر الله وحكمه بينهنّ وملكه ينفذ فيهنّ، وعن قتادة: في كل سماء وفي كل أرض من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه وقيل: هو ما يدبر فيهنّ من عجائب تدبيره. وقرئ*: ينزل الأمر. وعن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله هل تحت الأرضين خلق؟ قال: نعم. قال: فما الخلق؟ قال: إما ملائكة أو جن ﴿لتعلموا﴾ قرئ*: بالتاء والياء عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الطلاق مات على سنة رسول الله ﷺ»[5].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة التحريم مدنية

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾.

روي أن رسول الله ﷺ خلا بمارية في يوم عائشة وعلمت بذلك حفصة فقال لها: اكتمي عليّ وقد حرمت مارية على نفسي[6] وأبشرك أنّ أبا بكر وعمر يملكان

(1) سورة البقرة، الآية: 236.
(2) سورة الأعراف، الآية: 44.
(3) سورة الأعراف، الآية: 50.
(4) قال أحمد: وعلى هذين الوجهين الأخيرين يكون مفعولاً، إما بالفعل المحذوف أو بالمصدر، وعلى الأربعة المتقدمة بدلاً، والله سبحانه وتعالى أعلم.
(5) الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم زيلعي 4/55.
(6) قال أحمد: ما أطلقه الزمخشري في حق النبي ﷺ تقوّل وافتراء، والنبي ﷺ منه براء، وذلك أن تحريم ما أحله الله على وجهين، اعتقاد ثبوت حكم التحريم فيه، فهذا بمثابة اعتقاد حكم التحليل فيما حرمه الله عز وجل، وكلاهما محظور لا يصدر من المتسمين بسمة الإيمان، وإن صدر سلب المؤمن حكم الإيمان واسمه. الثاني: الامتناع مما أحله عز وجل وحمل التحريم بمجرّده صحيح، لقوله: ﴿وحرمنا عليه المراضع من قبل﴾ أي: منعنا لا =

بعدي أمر أمتي فأخبرت به عائشة وكانتا متصادقتين[1] وقيل: خلا بها في يوم حفصة فأرضاها بذلك واستكتمها فلم تكتم[2] فطلقها واعتزل نساءه ومكث تسعًا وعشرين ليلة في بيت مارية[3] وروي أنّ عمر قال لها: لو كان في آل الخطاب خير لما طلقك فنزل جبريل عليه السلام وقال: راجعها فإنها صوّامة قوّامة وإنها لمن نسائك في الجنة[4] وروي أنه شرب عسلاً في بيت زينب بنت جحش فتواطأت عائشة وحفصة فقالتا له: إنا نشم منك ريح المغافير وكان رسول الله ﷺ يكره التفل فحرّم العسل[5] فمعناه: ﴿**لِمَ تحرّم ما أحلّ الله لك**﴾ من ملك اليمين أو العسل و ﴿**تبتغي**﴾ إما تفسير لتحرم أو حال أو استئناف وكان هذا زلة منه لأنه ليس لأحد أن يحرّم ما أحلّ الله لأنّ الله عزّ وجل إنما أحلّ ما أحل لحكمة ومصلحة عرفها في إحلاله فإذا حرّم كان ذلك قلب المصلحة مفسدة ﴿**والله غفور**﴾ قد غفر لك ما زللت فيه ﴿**رحيم**﴾ قد رحمك فلم يؤاخذك به.

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾.

﴿**قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم**﴾ فيه معنيان: أحدهما قد شرع الله لكم الاستثناء في أيمانكم من قولك: حلل فلان في يمينه، إذا استثنى فيها. ومنه حلاً أبيت اللعن بمعنى استثن في يمينك إذا أطلقها وذلك أن يقول: إن شاء الله عقيبها حتى لا يحنث. والثاني قد شرع الله لكم تحلتها بالكفارة ومنه قوله عليه السلام: لا يموت لرجل ثلاثة أولاد فتمسه النار إلا تحلة القسم[6]. وقول ذي الرمّة: قليلاً كتحليل الألي.

فإن قُلْتَ: ما حكم تحريم الحلال؟ **قُلْتُ**: قد اختلف فيه فأبو حنيفة يراه يمينًا في كل شيء ويعتبر الانتفاع المقصود فيما يحرّمه فإذا حرّم طعامًا فقد حلف على أكله، أو أمة فعلى وطئها، أو زوجة فعلى الإيلاء منها إذا لم يكن له نية وإن نوى الظهار فظهار، وإن نوى الطلاق فطلاق بائن، وكذلك إن نوى ثنتين وإن نوى ثلاثًا فكما نوى. وإن قال: نويت الكذب دين فيما بينه وبين الله تعالى ولا يدين في القضاء بإبطال الإيلاء، وإن قال: كل حلال عليّ حرام فعلى الطعام والشراب إذا لم ينو وإلا فعلى ما نوى. ولا يراه الشافعي يمينًا ولكن سببًا في الكفارة في النساء وحدهنّ وإن نوى الطلاق فهو رجعي عنده. وعن أبي بكر وعمر وابن عباس وابن مسعود وزيد رضي الله عنهم أنّ الحرام يمين[7]، وعن عمر إذا نوى الطلاق فرجعي، وعن علي رضي الله عنه ثلاث[8]، وعن زيد واحدة بائنة. وعن عثمان ظهار. وكان مسروق لا يراه شيئًا ويقول: ما أبالي أحرمتها أم قصعة من ثريد، وكذلك عن الشعبي قال: ليس بشيء محتجًا بقوله تعالى: ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام﴾[9] وقوله تعالى: ﴿تحرّموا طيبات ما أحلّ الله لكم﴾[10] وما لم يحرّمه الله تعالى فليس لأحد أن يحرّمه ولا أن يصير بتحريمه حرامًا. ولم يثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: لما أحله الله هو حرام عليّ وإنما امتنع من مارية ليمين تقدّمت منه وهو قوله عليه السلام: «والله لا أقربها بعد اليوم». فقيل له: لم تحرّم ما أحل الله لك، أي: لم تمتنع منه بسبب اليمين. يعني: قدم على ما حلفت عليه وكفر عن يمينك ونحوه قوله تعالى: ﴿وحرّمنا عليه المراضع﴾[11] أي

= غير، وقد يكون مؤكداً باليمين مع اعتقاد حله، وهذا مباح صرف حلال ومحض، ولو كان على المنع ترك المباح والامتناع منه غير مباح استحالت حقيقة الحال بلا إشكال، فإذا علمت بون ما بين القسمين فعلى القسم الثاني تحمل الآية والتفسير الصحيح يعضده، فإنّ النبيّ ﷺ حلف بالله «لا أقرب مارية» ولما نزلت الآية كفر عن يمينه، ويدل عليه ﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾ وقال مالك في المدونة عن زيد بن أسلم: إنما كفر النبي ﷺ في تحريمه أم ولده؛ لأنه حلف أن لا يقربها، ومثله عن الشعبي، وهذا المقدار مباح ليس في ارتكابه جناح، وإنما قيل له: ﴿لِمَ تحرم ما أحل الله لك﴾ رفقاً به وشفقة عليه، وتنويهاً لقدره ولمنصبه ﷺ أن يراعى مرضات أزواجه بما يشق عليه، جرياً على ما ألف من لطف الله تعالى بنبيه، ورفعه عن أن يخرج بسبب أحد من البشر الذين هم أتباعه، ومن أجله خلقوا ليظهر الله كمال نبوّته بظهور نقصانهم عنه، والزمخشري قطعاً لم يحمل التحريم على هذا الوجه؛ لأنه جعل زلة فيلزمه أن يحمله على المحمل الأوّل، ومعاذ الله وحاش لله وأنّ آحاد المؤمنين حاشى عن أن يعتقد تحريم ما أحل الله له، فكيف لا يربأ بمنصب النبي ﷺ عما يرتفع عنه منصب عامة الأمّة، وما هذه من الزمخشري إلا جراءة على الله ورسوله، وإطلاق القول من غير تحرير، وإبراز الرأي الفاسد بلا تخمير، نعوذ بالله من ذلك، وهو المسؤول أن يجعل وسيلتنا إليه تعظيماً لنبينا صلوات الله عليه، وأن يجنبنا خطوات الشيطان ويقيلنا من عثرات اللسان آمين.

(1) الطبراني في معجمه.
(2) قال الزيلعي غريب. ورواه ابن أبي خيثمة في تاريخه وابن سعد في الطبقات ثم ساق الحديثين 4/61.
(3) لم يخرجه الزيلعي.
(4) الحاكم في المستدرك 4/15.
(5) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير سورة التحريم باب: ﴿يا أيها النبي لمَ تحرم ما أحل الله لك...﴾ (الحديث رقم: 4912)، ومسلم في كتاب: الطلاق، باب: وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق (الحديث رقم: 20 ـ 1474).
(6) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلاة والآداب، باب: فضل من يموت له ولد فيحتسبه (الحديث رقم: 150 ـ 2632).
(7) حديث أبي بكر رواه ابن أبي شيبة 5/74 كتاب: الطلاق باب: الحرام يمين وحديث عمر رواه ابن أبي شيبة 5/73 كتاب الطلاق باب الحرام يمين وحديث ابن عباس رواه مسلم في كتاب الطلاق باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته... (الحديث رقم: 18 ـ 1473)، وحديث ابن مسعود رواه عبد الرزاق في المصنف 6/401 (الحديث رقم: 11364)، وحديث زيد لم يخرجه الزيلعي.
(8) رواه عبد الرزاق في المصنف 6/404 (الحديث رقم: 11390).
(9) سورة النحل، الآية: 116.
(10) سورة المائدة، الآية: 87.
(11) سورة القصص، الآية: 12.

منعناه منها وظاهر قوله تعالى: ﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾ أنه كانت منه يمين.

فإن قُلْتَ: هل كفر رسول الله ﷺ لذلك؟ **قُلْتُ:** عن الحسن أنه لم يكفر لأنه كان مغفورًا له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر[1] وإنما هو تعليم المؤمنين، وعن مقاتل أنّ رسول الله ﷺ أعتق رقبة في تحريم مارية[2].

﴿والله مولاكم﴾ سيدكم ومتولي أموركم ﴿وهو العليم﴾ بما يصلحكم فيشرعه لكم ﴿الحكيم﴾ فلا يأمركم ولا ينهاكم إلا بما توجبه الحكمة، وقيل: مولاكم أولى بكم من أنفسكم فكانت نصيحته أنفع لكم من نصائحكم لأنفسكم.

وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾.

﴿بعض أزواجه﴾ حفصة والحديث الذي أسر إليها حديث مارية. وإمامة الشيخين ﴿نبأت به﴾ أفشته إلى عائشة وقرئ أنبأت به ﴿وأظهره﴾ وأطلع النبي عليه السلام ﴿عليه﴾ على الحديث أي: على إفشائه على لسان جبريل، وقيل: أظهر الله الحديث على النبي ﷺ من الظهور ﴿عرف بعضه﴾ أعلم ببعض الحديث تكرمًا، قال: سفيان ما زال التغافل من فعل الكرام، وقرئ عرف بعضه أي: جاز عليه من قولك للمسيء: لأعرفن لك ذلك، وقد عرفت ما صنعت، ومنه أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم وهو كثير في القرآن. وكان جزاؤه تطليقه إياها وقيل: المعرف حديث الإمامة والمعرض عنه حديث مارية، وروي أنه ﷺ قال لها: «ألم أقل لك اكتمي عليّ»، قالت: والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي فرحًا بالكرامة التي خص الله بها إياها.

فإن قُلْتَ: هلا قيل: فلما نبأت به بعضهن وعرفها بعضًا! **قُلْتُ:** ليس الغرض بيان من المذاع إليه ومن المعروف وإنما هو ذكر جناية حفصة في وجود الإنباء به وإفشائه من قبلها، وأن رسول الله ﷺ بكرمه وحلمه لم يوجد منه إلا الإعلام ببعضه وهو حديث الإمامة ألا ترى أنه لما كان المقصود في قوله: ﴿فلما نباها به قالت مَن أنبأك هذا﴾[3] ذكر المنبأ كيف أتى بضميره.

إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾.

﴿إن تتوبا﴾ خطاب لحفصة وعائشة على طريقة الالتفات ليكون أبلغ في معاتبتهما، وعن ابن عباس: لم أزل حريصًا على أن أسأل عمر عنهما حتى حج وحججت معه، فلما كان ببعض الطريق عدل وعدلت معه بالإداوة فسكبت الماء على يده فتوضأ فقلت: من هما؟ فقال: عجبًا يا ابن عباس. كأنه كره ما سألته عنه، ثم قال: هما حفصة وعائشة[4] ﴿فقد صغت قلوبكما﴾ فقد وجد منكما ما يوجب التوبة وهو ميل قلوبكما عن الواجب في مخالصة رسول الله ﷺ من حب ما يحبه وكراهة ما يكرهه، وقرأ ابن مسعود: فقد زاغت ﴿وإن تظاهرا﴾ وإن تعاونا ﴿عليه﴾ بما يسوءه من الإفراط في الغيرة وإفشاء سره فلن يعدم هو من يظاهره، وكيف يعلم المظاهر من الله مولاه أي: وليه وناصره، وزيادة هو إيذان بأن نصرته عزيمة من عزائمه وأنه يتولى ذلك بذاته. ﴿وجبريل﴾ رأس الكروبيين وقرن ذكره بذكره مفردًا له من بين الملائكة تعظيمًا له وإظهارًا لمكانته عنده ﴿وصالح المؤمنين﴾ ومن صلح من المؤمنين يعني: كل من آمن وعمل صالحًا، وعن سعيد بن جبير: من برئ منهم من النفاق وقيل: الأنبياء، وقيل: الصحابة، وقيل: الخلفاء منهم.

فإن قُلْتَ: صالح المؤمنين واحد أم جمع؟ **قُلْتُ:** هو واحد أريد به الجمع، كقولك: لا يفعل هذا الصالح من الناس، تريد الجنس كقولك: لا يفعله من صلح منهم، ومثله قولك: كنت في السامر والحاضر، ويجوز أن يكون أصله صالحو المؤمنين بالواو فكتب بغير واو على اللفظ لأنّ لفظ الواحد والجمع واحد فيه كما جاءت أشياء في المصحف متبوع فيها حكم اللفظ دون وضع الخط ﴿والملائكة﴾ على تكاثر عددهم وامتلاء السموات من جموعهم ﴿بعد ذلك﴾ بعد نصرة الله وناموسه وصالحي المؤمنين ﴿ظهير﴾ فوج مظاهر له كأنهم يد واحدة على من يعاديه، فما يبلغ تظاهر امرأتين على من هؤلاء ظهراؤه.

فإن قُلْتَ: قوله بعد ذلك تعظيم للملائكة ومظاهرتهم وقد تقدّمت نصرة الله وجبريل وصالح المؤمنين ونصرة الله تعالى أعظم وأعظم! **قُلْتُ:** مظاهرة الملائكة من جملة نصرة الله فكأنه فضل نصرته تعالى بهم وبمظاهرتهم على غيرها من وجوه نصرته تعالى لفضلهم على جميع خلقه. وقرئ: تظاهرا وتتظاهرا وتظهرا.

عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾.

قرئ يبدله بالتخفيف والتشديد للكثرة ﴿مسلمات مؤمنات﴾ مقرّات مخلصات ﴿سائحات﴾ صائمات وقرئ: سيحات، وهي أبلغ. وقيل للصائم: سائح لأنّ السائح لا زاد معه فلا يزال ممسكًا إلى أن يجد ما يطعمه فشبه به

(1) أخرجه أبو داود في المراسيل، باب في الحرام (الحديث رقم: 240).

(2) لم يخرجه الزيلعي، وقال المحقق ورد من حديث أنس عن ابن مردويه راجع الدر المنثور 6/240، [4/64].

(3) سورة التحريم، الآية: 3.

(4) أخرجه البخاري في كتاب المظالم باب الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة في السطوح وغيرها (الحديث رقم: 2468).

الصائم في إمساكه إلى أن يجيء وقت إفطاره، وقيل: سائحات مهاجرات. وعن زيد بن أسلم لم تكن في هذه الأمّة سياحة إلا الهجرة.

فإن قُلْتَ: كيف تكون المبدلات خيرًا منهن ولم تكن على وجه الأرض نساء خير من أمّهات المؤمنين؟ **قُلْتُ:** إذا طلقهن رسول الله لعصيانهن له وإيذائهن إياه لم يبقين على تلك الصفة وكان غيرهن من الموصوفات بهذه الأوصاف مع الطاعة لرسول الله ﷺ والنزول على هواه ورضاه خيرًا منهن، وقد عرض بذلك في قوله: قانتات لأنّ القنوت هو القيام بطاعة الله وطاعة الله في طاعة رسوله.

فإن قُلْتَ: لم أخليت الصفات كلها عن العاطف[1] ووسط بين الثيبات والأبكار؟ **قُلْتُ:** لأنهما صفتان متنافيتان لا يجتمعن فيهما اجتماعهن في سائر الصفات فلم يكن بد من الواو.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾.

﴿قوا أنفسكم﴾ بترك المعاصي وفعل الطاعات **﴿وأهليكم﴾** بأن تأخذوهم بما تأخذون به أنفسكم وفي الحديث رحم الله رجلاً قال: يا أهلاه صلاتكم صيامكم زكاتكم مسكينكم يتيمكم جيرانكم لعلّ الله يجمعهم معه في الجنة[2] وقيل: إنّ أشد الناس عذابًا يوم القيامة من جهل أهله وقرئ: وأهلوكم[3] عطفًا على واوقوا وحسن العطف للفاصل.

فإن قُلْتَ: أليس التقدير قوا أنفسكم وليق أهلوكم أنفسهم؟ **قُلْتُ:** لا ولكن المعطوف مقارن في التقدير للواو وأنفسكم واقع بعده فكأنه قيل: قوا أنتم وأهلوكم أنفسكم لما جمعت مع المخاطب الغائب غلبته عليه فجعلت ضميرهما معًا على لفظ المخاطب **﴿نارًا وقودها الناس والحجارة﴾** نوعًا من النار لا يتقد إلا بالناس والحجارة كما يتقد غيرها من النيران بالحطب، وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي حجارة الكبريت وهي أشدّ الأشياء حرًا إذا أوقد عليها وقرئ: وقودها بالضم أي: ذو وقودها **﴿عليها﴾** يلي أمرها وتعنيب أهلها **﴿ملائكة﴾** يعني: الزبانية التسعة عشر وأعوانهم **﴿غلاظ شداد﴾** في أجرامهم غلظة وشدّة أي: جفاء وقوّة أو في أفعالهم جفاء وخشونة لا تأخذهم رأفة في تنفيذ أوامر الله والغضب له والانتقام من أعدائه **﴿ما أمرهم﴾** في محل النصب على البدل أي: لا يعصون ما أمر الله أي: أمره كقوله: أفعصيت أمري أو لا يعصونه فيما أمرهم.

فإن قُلْتَ: أليست الجملتان في معنى واحد؟ **قُلْتُ:** لا فإنّ معنى الأولى أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمونها ولا يأتونها[4] ولا ينكرونها ومعنى الثانية أنهم يؤدون ما يؤمرون به لا يتثاقلون عنه ولا يتوانون فيه.

فإن قُلْتَ: قد خاطب الله المشركين المكذبين بالوحي بهذا بعينه في قوله تعالى: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة﴾[5] وقال: ﴿أعدت للكافرين﴾[6] فجعلها معدّة للكافرين فما معنى مخاطبته به المؤمنين! **قُلْتُ:** الفساق وإن كانت دركاتهم فوق دركات الكفار فإنهم مساكنون الكفار في دار واحد فقيل: للذين آمنوا قوا أنفسكم باجتناب الفسوق مساكنة الكفار الذين أعدّت لهم هذه النار الموصوفة ويجوز أن يأمرهم بالتوقي من الارتداد والندم على الدخول في الإسلام وأن يكون خطابًا للذين آمنوا بألسنتهم وهم المنافقون ويعضد ذلك قوله تعالى على أثره.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾.

﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ أي: يقال لهم ذلك عند دخولهم النار لا تعتذروا لأنه لا عذر لكم أو لأنه لا ينفعكم الاعتذار.

---

(1) قال أحمد: وقد ذكر لي الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله أنّ القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني الكاتب رحمه الله كان يعتقد أنّ الواو في الآية هي الواو التي سماها بعض ضعفة النحاة واو الثمانية؛ لأنها ذكرت مع الصفة الثامنة، فكان الفاضل يتبجح باستخراجها زائدة على المواضع الثلاثة المشهورة صلة أحدها التي في الصفة الثامنة من قوله: ﴿التائبون العابدون﴾ عند قوله: ﴿والناهون عن المنكر﴾ والثانية في قوله: ﴿وثامنهم كلبهم﴾ والثالثة في قوله: ﴿وفتحت أبوابها﴾ قال الشيخ أبو عمرو بن الحاجب: ولم يزل الفاضل يستحسن ذلك من نفسه، إلى أن ذكره يوماً بحضرة أبي الجود النحوي المقري فبين له أنه واهم في عدها من ذلك القبيل، وأحال البيان على المعنى الذي ذكره الزمخشري من دعاء الضرورة إلى الإتيان بها ههنا، لامتناع اجتماع الصفتين في موصوف واحد، وواو الثمانية إن ثبتت فإنما ترد بحيث لا حاجة إليها إلا للإشعار بتمام نهاية العدد الذي هو السبعة، فانصفه الفاضل رحمه الله واستحسن ذلك منه، وقال: أرشدتنا يا أبا الجود.

(2) قال الزيلعي غريب 4/66.

(3) قال أحمد: ولكن المعطوف مقارن في التقدير للواو، وأنفسكم واقع بعده، كأنه قال: قوا أنتم وأهلوكم أنفسكم، ولكن لما اجتمع ضمير المخاطب والغائبين غلب ضمير الخطاب على ضمير الغيبة. ثم قال: فإن قلت قوله: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ أليس الجملتان في معنى واحد؟ وأجاب: بأن معنى الأولى أنهم يلتزمون الأوامر ولا يأتونها.

(4) قال أحمد: جوابه الأول مفرع على قاعدته الفاسدة في اعتقاد خلود الفساق في جهنم، ولعله إنما أورد السؤال ليتكلف عنه بجواب ينفس عما في نفسه مما لا يطيق كتمانه من هذا الباطل، نعوذ بالله منه، وإلا فالسؤال غير وارد، فإنه لا يمتنع أنّ المؤمن يحذر من عذاب الكافر أن يناله على الإيمان، كقوله في آل عمران خطاباً للمؤمنين: ﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين، وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾.

(5) سورة البقرة، الآية: 24.

(6) سورة البقرة، الآية: 24.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾.

﴿توبةً نصوحًا﴾ وصفت التوبة بالنصح على الإسناد المجازي والنصح صفة التائبين وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم فيأتوا بها على طريقها متداركة للفرطات ماحية للسيآت وذلك أن يتوبوا عن القبائح لقبحها نادمين عليها مغتمين أشدّ الاغتمام لارتكابها عازمين على أنهم لا يعودون في قبيح من القبائح إلى أن يعود اللبن في الضرع موطنين أنفسهم على ذلك، وعن علي رضي الله تعالى عنه أنه سمع أعرابيًا يقول: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك، فقال: يا هذا إنّ سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين، قال: وما التوبة، قال: يجمعها ستة أشياء على الماضي من الذنوب الندامة وللفرائض الإعادة وردّ المظالم واستحلال الخصوم وأن تعزم على أن لا تعود وأن تذيب نفسك في طاعة الله كما ربيتها في المعصية وأن تذيقها مرارة الطاعات كما أنقتها حلاوة المعاصي، وعن حذيفة بحسب الرجل من الشر أن يتوب عن الذنب ثم يعود فيه، وعن شهر بن حوشب أن لا يعود ولو خز بالسيف وأحرق بالنار، وعن ابن السماك أن تنصب الذنب الذي أقللت فيه الحياء من الله أمام عينك ويستعد لمنتظرك وقيل: توبة لا يتاب منها، وعن السدي لا تصح التوبة إلا بنصيحة النفس والمؤمنين لأن من صحت توبته أحب أن يكون الناس مثله وقيل: نصوحًا من نصاحة الثوب أي: توبة توفر خروقك في دينك وترم خلك وقيل: خالصة من قولهم: عسل ناصح إذا خلص من الشمع ويجوز أن يراد توبة تنصح الناس أي: تدعوهم إلى مثلها لظهور أثرها في صاحبها واستعماله الجدّ والعزيمة في العمل على مقتضياتها وقرأ زيد بن علي توبًا نصوحًا وقرئ نصوحًا بالضم هو مصدر نصح والنصح والنصوح كالشكر والشكور والكفر والكفور أي: ذات نصوح أو تنصح نصوحًا أو توبوا لنصح أنفسكم على أنه مفعول له **﴿عسى ربكم﴾** إطماع من الله لعباده وفيه وجهان أحدهما أن يكون على ما جرت به عادة الجبابرة من الإجابة بعسى ولعل ووقوع ذلك منهم موقع القطع والبت والثاني أن يجيء به تعليمًا للعباد وجوب الترجح بين الخوف والرجاء والذي يدل على المعنى الأوّل وأنه في معنى البت قراءة ابن أبي عبلة ويدخلكم بالجزم عطفًا على محل عسى أن يكفر كأنه قيل: توبوا يوجب لكم تكفير سيآتكم ويدخلكم **﴿يوم لا يخزي الله﴾** نصب بيدخلكم ولا يخزي تعريض بمن أخزاهم الله من أهل الكفر والفسوق واستحماد إلى المؤمنين على أنه عصمهم من مثل حالهم **﴿يسعى نورهم﴾** على الصراط **﴿اتمم لنا نورنا﴾** قال ابن عباس: يقولون ذلك: إذا طفئ نور المنافقين إشفاقًا، وعن الحسن الله متممه لهم ولكنهم يدعون تقرّبًا إلى الله كقوله تعالى: **﴿واستغفر لذنبك﴾**[1] وهو مغفور له وقيل: يقوله أدناهم منزلة لأنهم يعطون من النور قدر ما يبصرون به مواطئ أقدامهم لأنّ النور على قدر الأعمال فيسألون إتمامه تفضلاً وقيل: السابقون إلى الجنة يمرّون مثل البرق على الصراط وبعضهم كالريح وبعضهم حبوًا وزحفًا فأولئك الذين يقولون ربنا أتمم لنا نورنا.

فإن قُلْتَ: كيف يشفقون والمؤمنون آمنون أم من يأتي آمنا يوم القيامة لا خوف عليهم لا يحزنهم الفزع الأكبر أو كيف يتقربون وليست الدار دار تقرّب؟ **قُلْتُ:** أما الإشفاق فيجوز أن يكون على عادة البشرية وإن كانوا معتقدين الأمن وأما التقرّب فلما كانت حالهم كحال المتقربين حيث يطلبون ما هو حاصل لهم من الرحمة سماه تقرّبًا.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾.

﴿جاهد الكفار﴾ بالسيف **﴿والمنافقين﴾** بالاحتجاج. واستعمل الغلظة والخشونة على الفريقين فيما تجاهدهما به من القتال والمحاجة، وعن قتادة مجاهدة المنافقين لإقامة الحدود عليهم، وعن مجاهد بالوعيد وقيل: بإفشاء أسرارهم. مثل الله عز وجل حال الكفار في أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم من غير إبقاء ولا محاباة، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لحمة نسب أو وصلة صهر لأنّ عداوتهم لهم وكفرهم بالله ورسوله قطع العلائق وبت الوصل، وجعلهم أبعد من الأجانب وأبعد، وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبيًا من أنبياء الله بحال.

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾.

امرأة نوح وامرأة لوط لما نافقتا وخانتا الرسولين عنهما بحق ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج إغناء ما من عذاب الله. **﴿وقيل﴾**: لهما عند موتهما أو يوم القيامة **﴿ادخلا النار مع﴾** سائر **﴿الداخلين﴾** الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء أو مع داخليها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط. ومثل حال المؤمنين في أنّ وصلة الكافرين لا تضرهم ولا تنقص شيئًا من ثوابهم وزلفاهم عند الله بحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله تعالى مع كونها زوجة أعدى أعداء الله الناطق بالكلمة العظمى. ومريم ابنة عمران وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين مع أنّ قومها كانوا كفارًا، وفي طي هذين التمثيلين

(1) سورة غافر، الآية: 55.

تعريض بأمّي المؤمنين المذكورتين في أوّل السورة وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله ﷺ بما كرهه وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشدّه لما في التمثيل من ذكر الكفر ونحوه في التغليظ قوله تعالى: ﴿ومن كفر فإنّ الله غني عن العالمين﴾[1] وأشار إلى أن من حقهما أن تكونا في الإخلاص والكمال فيه كمثل هاتين المؤمنتين وأن لا تتكلا على أنهما زوجا رسول الله فإنّ ذلك الفضل لا ينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين، والتعريض بحفصة أرجح لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول الله، وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب بالغة من اللطف والخفاء حدًا يدق عن تفطن العالم ويزل عن تبصره.

فإن قُلْتَ: ما فائدة قوله: من عبادنا؟ **قُلْتُ:** لما كان مبنى التمثيل على وجود الصلاح في الإنسان كائنًا من كان وأنه وحده هو الذي يبلغ به الفوز وينال ما عند الله، قال: عبدين من عبادنا صالحين فذكر النبيين المشهورين العلمين بأنهما عبدان لم يكونا إلا كسائر عبادنا من غير تفاوت بينهما وبينهم إلا بالصلاح وحده إظهارًا وإبانةً، لأنّ عبدًا من العباد لا يرجح عنده إلا بالصلاح لا غير وأنّ ما سواه مما يرجح به الناس عند الناس ليس بسبب المرجحان عنده.

فإن قُلْتَ: ما كانت خيانتهما؟ **قُلْتُ:** نفاقهما وإبطانهما الكفر وتظاهرهما على الرسولين. فامرأة نوح قالت لقومه: إنه مجنون وامرأة لوط دلت على ضيفانه، ولا يجوز أن يراد بالخيانة الفجور لأنه سمج في الطباع نقيصة عند كل أحد بخلاف الكفر، فإنّ الكفار لا يستسمجونه بل يستحسنونه ويسمونه حقًا.

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «ما بغت امرأة نبي قط. وامرأة فرعون آسية بنت مزاحم»[2]. وقيل: هي عمة موسى عليه السلام آمنت حين سمعت بتلقف عصا موسى الإفك فعذبها فرعون. عن أبي هريرة أنّ فرعون وتد امرأته بأربعة أوتاد واستقبل بها الشمس وأضجعها على ظهرها ووضع رحى على صدرها، وقيل: أمر بأن تلقى عليها صخرة عظيمة، فدعت الله فرقى بروحها، فألقيت الصخرة على جسدٍ لا روح فيه، وعن الحسن: فنجاها الله أكرم نجاة فرفعها إلى الجنة فهي تأكل وتشرب وتتنعم فيها، وقيل: لما قالت: ﴿رب ابن لي عندك بيتًا في الجنة﴾. أريت بيتها في الجنة يبنى، وقيل: إنه من درة، وقيل: كانت تعذب في الشمس فتظلها الملائكة.

فإن قُلْتَ: ما معنى الجمع بين عندك وفي الجنة؟ **قُلْتُ:** طلبت القرب من رحمة الله والبعد من عذاب أعدائه ثم بينت مكان القرب بقولها: في الجنة، أو أرادت ارتفاع الدرجة في الجنة وأن تكون جنتها من الجنان التي هي أقرب إلى العرش وهي جنات المأوى فعبرت عن القرب إلى العرش بقولها: عندك ﴿**من فرعون وعمله**﴾ من عمل فرعون أو من نفس فرعون الخبيثة وسلطانه الغشوم وخصوصًا من عمله وهو الكفر وعبادة الأصنام والظلم والتعذيب بغير جرم ﴿**ونجني من القوم الظالمين**﴾ من القبط كلهم. وفيه دليل على أنّ الاستعاذة بالله والالتجاء إليه ومسئلة الخلاص منه عند المحن والنوازل من سير الصالحين وسنن الأنبياء والمرسلين. الآية ﴿فافتح بيني وبينهم فتحًا ونجني ومن معي من المؤمنين﴾[3]. ﴿وربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾[4].

وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾.

﴿**فيه**﴾ في الفرج وقرأ ابن مسعود: فيها، كما قرئ في سورة الأنبياء والضمير للجملة. وقد مر لي في هذا الظرف كلام ومن بدع التفاسير أنّ الفرج هو جيب الدرع، ومعنى أحصنته منعته جبريل، وأنه جمع في التمثيل بين التي لها زوج والتي لا زوج لها تسلية للأرامل وتطييبًا لأنفسهنّ ﴿**وصدقت**﴾ قرئ: بالتشديد والتخفيف، على أنها جعلت الكلمات والكتب صادقة. يعني: وصفتها بالصدق، وهو معنى التصديق بعينه.

فإن قُلْتَ: فما كلمات الله وكتبه؟ **قُلْتُ:** يجوز أن يراد بكلماته صحفه التي أنزلها على إدريس وغيره سماها كلمات لقصرها[5]، وبكتبه الكتب الأربعة وأن يراد جميع ما كلم الله به ملائكته وغيرهم، وجميع ما كتبه في اللوح وغيره، وقرئ: بكلمة الله وكتابه أي: بعيسى وبالكتاب المنزل عليه وهو الإنجيل.

فإن قُلْتَ: لم قيل: ﴿**من القانتين**﴾ على التذكير؟ قلت: لأنّ القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين فغلب ذكوره

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 97.

(2) رواه عبد الرزاق في تفسيره والزيلعي 4/66.

(3) سورة الشعراء، الآية: 118.

(4) سورة يونس، الآيتان: 85 ـ 86.

(5) قال أحمد: هو يعتقد حدوث كلام الله ويجحد الكلام القديم، فلا جرم أنّ كلامه لا يعدو الإشعار بأنّ كلمات الله متناهية؛ لأنه في الوجه الأوّل جعلها مجموعة جمع قلة لقصرها، وفي الثاني = حصرها بقوله: جميع وأين، وصفه لها بالقصر. والحصر من الآيتين التوامتين اللتين إحداهما قوله: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي﴾ والأخرى قوله: ﴿ولو أنّ ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ الآية، وما هو في الحقيقة إلا غير مؤمن بكلمات الله تعالى، فالحق أنّ كلام الله تعالى صفة ـ ن صفات كماله أزلية أبدية غير متناهية، فهكذا آمنت امرأة فرعون المتلو ثناؤها في كتاب الله العزيز، ثبتنا الله على الإيمان ووقانا الخذلان، والله المستعان.

على إنائه ومن للتبعيض ويجوز أن يكون لابتداء الغاية على أنها ولدت من القانتين لأنها من أعقاب هُرون أخي موسى صلوات الله عليهما، وعن النبي ﷺ: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[1]. وأما ما روي أنّ عائشة سألت رسول الله ﷺ: كيف سمى الله المسلمة ـ تعني مريم ـ ولم يسم الكافرة؟ فقال: بغضًا لها، قالت: وما اسمها؟ قال: اسم امرأة نوح واهلة، واسم امرأة لوط واهلة. فحديث أثر الصنعة عليه ظاهر بيّن، ولقد سمى الله تعالى جماعة من الكفار بأسمائهم وكناهم ولو كانت التسمية للحب وتركها للبغض لسمي آسية وقد قرن بينها وبين مريم في التمثيل للمؤمنين وأبى الله إلا أن يجعل للمصنوع أمارةً تنم عليه وكلام رسول الله ﷺ أحكم وأسلم من ذلك. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة التحريم آتاه الله توبةً نصوحًا»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الملك مكية

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾.

﴿تبارك﴾ تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين ﴿الذي بيده الملك﴾ على كل موجود ﴿وهو على كل﴾ ما لم يوجد مما يدخل تحت القدرة ﴿قدير﴾ وذكر اليد مجاز عن الإحاطة بالملك والاستيلاء عليه. والحياة ما يصح بوجوده الإحساس، وقيل: ما يوجب كون الشيء حيًا وهو الذي يصح منه أن يعلم ويقدر.

ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾.

والموت عدم ذلك[3] فيه، ومعنى خلق الموت والحياة إيجاد ذلك المصصح وإعدامه، والمعنى خلق موتكم وحياتكم أيها المكلفون ﴿ليبلوكم﴾ ويسمى علم الواقع منهم باختبارهم بلوى وهي الخبرة استعارة من فعل المختبر ونحوه قوله تعالى: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم﴾[4].

فإن قُلْتَ: من أين تعلق قوله: ﴿أيكم أحسن عملاً﴾ بفعل البلوى! **قُلْتُ:** من حيث أنه تضمن معنى العلم[5]، فكأنه قيل: ليعلمكم أيكم أحسن عملاً، وإذا قلت: علمته أزيد أحسن عملاً أم هو، كانت هذه الجملة واقعة موقع الثاني من مفعوليه كما تقول: علمته هو أحسن عملاً.

فإن قُلْتَ: تسمى هذا تعليقًا؟ **قُلْتُ:** لا إنما التعليق أن توقع بعده ما يسدّ مسدّ المفعولين جميعًا كقولك: علمت أيهما عمرو وعلمت أزيد منطلق. ألا ترى أنه لا فصل بعد سبق أحد المفعولين بين أن يقع ما بعده مصدرًا بحرف الاستفهام وغير مصدر به، ولو كان تعليقًا لافترقت الحالتان كما افترقتا في قولك: علمت أزيد منطلق وعلمت زيدًا منطلقًا أحسن عملاً. قيل: أخلصه وأصوبه، لأنه إذا كان خالصًا غير صواب لم يقبل وكذلك إذا كان صوابًا غير خالص. فالخالص أن يكون لوجه الله تعالى، والصواب أن يكون على السنة، «وعن النبي ﷺ أنه تلاها فلما بلغ قوله: ﴿أيكم أحسن عملاً﴾. قال: أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله»[6]. يعني: أيكم أتم عقلاً عن الله وفهمًا لأغراضه، والمراد أنه أعطاكم الحياة التي تقدرون بها على العمل وتستمكنون منه، وسلط عليكم الموت الذي هو داعيكم إلى اختيار العمل الحسن على القبيح لأن وراءه البعث والجزاء الذي لا بد منه، وقدم الموت على الحياة لأنّ أقوى الناس داعيًا إلى العمل من نصب موته بين عينيه فقدم لأنه فيما يرجع إلى الغرض المسوق له الآية أهم ﴿وهو العزيز﴾ الغالب الذي لا يعجزه من أساء العمل ﴿الغفور﴾ لمن تاب من أهل الإساءة.

ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾.

﴿طباقًا﴾ مطابقةً بعضها فوق بعض من طابق النعل إذا خصفها طبقًا على طبق، وهذا وصف بالمصدر، أو على ذات طباق أو على طوبقت طباقًا ﴿من تفاوت﴾ وقرئ: من تفوت، ومعنى البناءين واحد كقولهم: تظاهروا من نسائهم

---

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: أخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، (الحديث رقم: 7114)، وأخرجه البخاري في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل عائشة رضي الله عنها (الحديث رقم: 3719)، وأبو نعيم في الحلية 5/99.

(2) رواه الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم والزيلعي 4/68.

(3) قال أحمد: أخطأ في تفسير الموت بينه المعروف أن يفسر ويتبع التفسير آراء القدرية، ومنها قطع الله نكرها: أن الموت عدم وهو خطأ صراح، ومعتقد أهل السنة أنه أمر وجودي يضاد الحياة،= وكيف يكون العدم بهذه المثابة، ولو كان العدم مخلوقاً حادثاً، وعدم الحوادث مقرر أزلاً للزم قطع الحوادث أزلاً، وذلك أبشم من القول بقدم العالم، فانظر إلى هذا الهوى أين مؤداه، وكيف أهوى بصاحبه فأرداه، نعوذ بالله من الزلل والخطل.

(4) سورة محمد، الآية: 31.

(5) قال أحمد: التعليق عن أحد المفعولين مختلف فيه بين النحاة والأصح ما أجازه، وهو في هذا الفن يمشي، وفيه يدرج ويدري كيف يدخل فيه ويخرج.

(6) تقدم تخريجه سابقاً.